يـــونس

عليه السلام

روى الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

ويونس بن متى هو صاحب الدعوة المشهورة، التى يقول عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لم يدع مسلم ربه فى شىء قط بها إلا استجاب له».

وهذه الدعوة هى:

«لا إله إلا أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين».

وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص يتمثل فى قوله تعالى: لا إلٰه إلا أنت. وتثنى بالتنزيه، تنزيه الله عن كل ما يتنافى مع الكمال، وذلك يتمثل فى قوله: «سبحانك».

ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثل فى قوله:

obeikandl.com

«إنى كنت من الظالمين».

وهذه الكلمات القليلة التى يتمثل فيها الإيجاز المعجز فى اللفظ، والتى يتمثل فيها السمو السامى فى المعنى لا تطلب شيئًا فى صراحة، ولا تنادى بشىء بأسلوب مباشر، ولكنها مفعمة بالطلب، مفعمة بالاستغاثة.

لقد دعا بها سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت.

ويحسن أن نبدأ القصة من أولها:

ولقد أرسل الله سيدنا يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل، وكان سيدنا يونس ككل الأنبياء، متحمسًا لدعوته، قائمًا بها فى الصباح والمساء، وكلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ومتخذًا لها كل الوسائل التى فى إمكانه لتنتشر وتعم.

ولكن قومه قابلوا تحمسه بفتور، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم، وقابلوا عنايته بعناد لا يلين.

وإذا كان سيدنا نوح فى مثل هذا الموقف الذى لا بارقة من أمل فى إصلاحه دعا على قومه قائلًا:

﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارًا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح آية: ٢٦-٢٧).

فإن سيدنا يونس رأى أن لا فائدة فى المكث بينهم فأنذرهم بحلول

العذاب بهم بعد ثلاثة أيام، وخرج من بينهم معلنًا أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب الله الذى يوشك أن يحل بهم لكفرهم وطغيانهم.

وغادر المدينة متعمدًا أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها.

وما أن فارقهم نبى الله حتى بدأ الخوف بل الرعب يدب إلى قلوبهم، ويتغلغل فى نفوسهم. ولقد أخذتهم ذاكرتهم فى إلقاء الضوء على صدقه وأمانته، وعلى فضائله ومكارم أخلاقه، وعلى أنه لم يعهد عليه الكذب ولا الخديعة وترجح عندهم صدقه، ثم أيقنوا بهذا الصدق، وتأكدوا أن العذاب لا محالة نازل بهم وأخذ خيالهم يصور لهم العذاب وألوانه، وفجائعه، فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى اتفاق عام، هذا الاتفاق العام يصوره أسلافنا فى صورة أخاذة يرويها الإمام ابن كثير على الوضع التالى:

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم لجأوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتقربوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وخارت الأنعام والدواب والمواشى، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة. وهذه هى الصورة التى رسمها أسلافنا. فماذا كان من أمره وماذا كان بعد من أمرهم؟

فارق يونس عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر فتضرعوا إلى الله سبحانه بالتوبة والإنابة والاستغفار، مقدمين بين يدى ذلك كله: الإيمان الصادق فكانت ثمرة ذلك نجاتهم التى صورها الله بقوله:

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (يونس آية: ٩٨).

وهذا الذى صنعه الله بهم يساير نواميس الله سبحانه التى سنها نظامًا عامًا للبشرية، وهى أن عذاب الله سبحانه ينزل على الأفراد أو على المجتمعات بنسبة بعدهم عن الإيمان، وأن رحمته تغمر الأفراد والمجتمعات بنسبة قربهم من الإيمان، والنجاة دائمًا مكفولة فى نواميس الله للمؤمنين الصادقين.

أما يونس عليه السلام فإنه لما ضاق بقومه ذرعًا فارقهم مغاضبًا منذرًا بالعذاب.

ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من الله سبحانه أو عن أمر منه، وإنما ظن هو أن هذا فى شريعة الله أوسع من أن يحتاج إلى إذن، وأنه غير مضيق عليه من قبل الله فى المكث أو فى المفارقة، أى أنه فى مجال المباح.

وعزب عن ذهنه فى ساعة مغاضبته لقومه أن المفارقة، بدون استئذان إذا جازت بالنسبة للأفراد العاديين، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم الله للعبودية الخالصة، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله.

إن هؤلاء لا يتحركون إلا به، ولا يسكنون إلا عن أمره، وهم فى كل ما يأتون به وما يدعون قد ألقوا بمقاليد أمورهم بين يديه يصرفهم حسبما يشاء.

ولعل ذلك هو ما تعنيه الكلمة القرآنية الكريمة فى قوله تعالى:

﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت﴾ (سورة القلم: آية ٤٩).

وصاحب الحوت هو سيدنا يونس الذى لم يصبر على كفر قومه وعنادهم ففارقهم عن غير إذن من الله، فكان من تقدير الله سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب مركبًا مشحونًا ثقيل الحمولة، وهبت ريح جعلت المركب على حافة الغرق بمن فيها، فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها.

واستهم الركاب على من يلقون به فى البحر تخفيفا للحمولة، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام وألقوه فى البحر.

ولما ألقوه فى البحر، ابتلعه حوت كبير، وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه فى بطن الحوت فأسرع مستغيثًا:

﴿فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ (سورة الأنبياء: آية ٨٧).

روى يزيد الرقاشى قال:

سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول:

إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال:

«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال:

أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يارب ومن هو؟ قال: عبدى يونس.

قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟

قالوا: يا ربنا، أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟

قال: بلى.

فأمر الحوت فطرحه فى العراء.

أمر الله الحوت أن يلقى بيونس فألقاه الحوت بالعراء وهو ضعيف البدن، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - قرع - ليأكل منها - وهى غذاء مفيد - دون أن يسعى لنيل غذائه وهو بهذه الدرجة من الضعف، وعناية الله فوق كل عناية، يقول ابن كثير: قال بعض العلماء:

«فى إنبات القرع عليه حكم جمة، منها أن ورقه فى غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيا ومطبوخا، وبقشره وببذره أيضا، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ وغير ذلك». اهـ.

أما هذه العناية من الله بيونس، فإن الله سبحانه يحدث عن سببها إذ يقول:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾. (الصافات: آية ١٤٣-١٤٤).

لقد كان يونس عليه السلام مسبّحًا، أى منزهًا لله سبحانه، والتعبير الذى يدل عليه التنزيه هو:

(سبحان الله، أو: سبحان الله وبحمده).

أما نداء يونس وهو فى بطن الحوت، أى:

«.. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

فإنه دعوة فى غاية الحق:

إنها أولاً توحيد: لا إله إلا أنت.

وثانيا: سبحانك.

وثالثا: اعتراف وصف فيه نفسه بالتقصير فى حق الله:

«إنى كنت من الظالمين».

ومع كل ذلك فإن يونس عليه السلام ككل الأنبياء والرسل فى قمة الخلق الكريم.

والتسبيح إذن من وسائل النجاة والحفظ والحماية.

أما دعاء يونس عليه السلام فقد روى سعيد بن المسيب، قال:

سمعت ابن مالك - وهو ابن أبى وقاص يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس ابن متى» قال:

فقلت يا رسول الله: هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال: هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ (الأنبياء الآية: ٨٧).

«فهو شرط من الله لمن دعاه به» أهـ.

أما عن يونس عليه السلام نفسه، فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه:

﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

واخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

على رسولنا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم».

obeikandl.com